نحو معجم إسلامي عربي للأطفال

عبدالتواب يوسف

أدب الأطفال هو ما يتوجه به أصحابه إلى فئات مختلفة من الأعمار ، وفي سن ما قبل المدرسة ، قد لا يكون هذا اللون « أدب لغة » إذ أحيانا تختفي الكلمات من على صفحات كتب هؤلاء الصغار ، وإن وجدت بعض الكلمات ،فلا نراها أدبا بقدر ما نحس أنها من أجل مزيد من الفهم للطفل ، وهنا تحل الصورة محل الكلمات ، وإن عبرت هذه في السياق عن قصة لابد من أن نرويها بالكلمات ، والصغير يتابعها على الرسوم. ولي تجربة مبهرة مع حفيد كان عمره ثلاث سنوات حين أهديته بعض كتب لاتحتوي على كلمات ، وناديته بعد أن قلبها فرحاً بها وبما فيها من صور جميلة ملونة وجذابة ، وقلت له : مارأيك في أن نجلس لنقرأ واحداً من هذه الكتب ؟ تطلع إلي وقال : هذه الكتب « تشاهد » ولاتقرأ ، فليس فيها كلمات نقرؤها . . قال : هذه العبارة بلغة غير العربية ، التي لم يكن يومئذ يتقنها بسبب ظروف خاصة به ، إذا كان يعيش حتى هذه السن خارج الوطن ..

وذكرته يوماً بهذه الحكاية التي لم يذكرها بالطبع ، وكنا نشاهد مباراة في كرة القدم وكان قد أتقن لغته الأم بشكل جيد ، وتأكد لي ذلك عندما سألته :

حين تحلم ، بأي لغة تتكلم ؟

أجاب : باللغة العربية طبعاً . .

وأثناء مشاهدة المباراة ، قال المذيع الذي يصفها :

فلان « قرأ » اللعبة !.

وضحك الصغير ، وقال لي :

لا نقرأ الكتب فحسب ، بل هانحن نقرأ اللعبة ونقرأ المباريات !

لقد أصبح متنبهاً لاستخدامات الكلمات في اللغة ولم يدرس بعد الصفة ، والحال ، وظرف الزمان ، وظرف المكان ، والتشبيهات ، والاستعارات بأنواعها ، والمدرسة التي يتعلم فيها قاصرة على أن تؤدي الدور المنوط بها بالنسبة للغة العربية ، لذلك تعين علينا أن نقوم به في البيت ، من خلال معلم ضليع ، استطاع أن يحببه فيها ، ويقربها إليه ، ويحببها له . . بجانب العناية الخاصة التي يوليها أفراد الأسرة إذ هم يحاولون سؤاله حين ينطق بكلمة عن مرادف لها بالفصحى ، فضلاً عن تدريبه على استخدام المعجم ، ويجد في ذلك متعة كبيرة ، إذ تدهشه المعاني العديدة للكلمة الواحدة وتذهله « دسامة الكلمة » ، إذ إن العصر وسع من هذه المعاني وأصبحت الكلمات لها دلالات أكبر بكثير من معناها الأصلي والمباشر ، وأضحى متنبهاً بالذات إلى الفكاهات « اللفظية » وقادراً على فهمها ، بل وأحياناً يستطيع أن يبدعها من عنديات ، خاصة عندما نحاول من جانبنا أن نلعب بالكلمات ، لنكتشف إلى أي حد يفهمها ويدركها ، خاصة حين تعوزه كلمة عربية يحاول أن يجدها ويلقى في ذلك صعوبة ويضطر للسؤال عنها ، ويضيق إذا لم يجد لها مقابلاً في كلمة واحدة ، حين نستطرد في شرح معناها ، والأمثلة على ذلك كثيرة خاصة فيما يتعلق بالمبتكرات الحديثة ، والتكنولوجيا ، والكلمة ذاتها . .

(٢)

هذا الحديث عن معاجم الأطفال وأدبهم طال إلى أن اقترب مما أريد أن أطرحه فيما يتعلق باللغة المستخدمة في هذا الأدب . . والمعروف أن للطفل أربعة معاجم أو قواميس : قاموس للكلمات المستخدمة باللهجة العامية المحلية في الحياة اليومية ، وهو واسع حين نتحدث بها إليه ، وقاموسه الثاني حين يعبر نفسه بهذه اللهجة ، وهو أضيق من الأول .. والقاموسان الآخران حين يقرأ بالفصحى ، وحين يكتب بها ..

وأريد أن أركز هنا على لغة الأدب الإسلامي بالذات وبالتحديد .. وعلى مفرداتها ، وحصيلة أطفالنا منها في العالم الإسلامي والوطن العربي ، حصيلة بالغة التواضع ، في الحياة اليومية - وأعتقد أن هذا ليس بصحيح في الجزيرة العربية ، وبالذات في المملكة العربية السعودية - والكتب الدينية التي يقرؤها أطفالنا في المناهج الدراسية تحاول أن تعلمه فروض دينه وأركانه ، في لغة مباشرة ، وليس في لغة أدبية ..

وهو أمر يشغلني كثيراً ، ويجعلني قلقاً ..

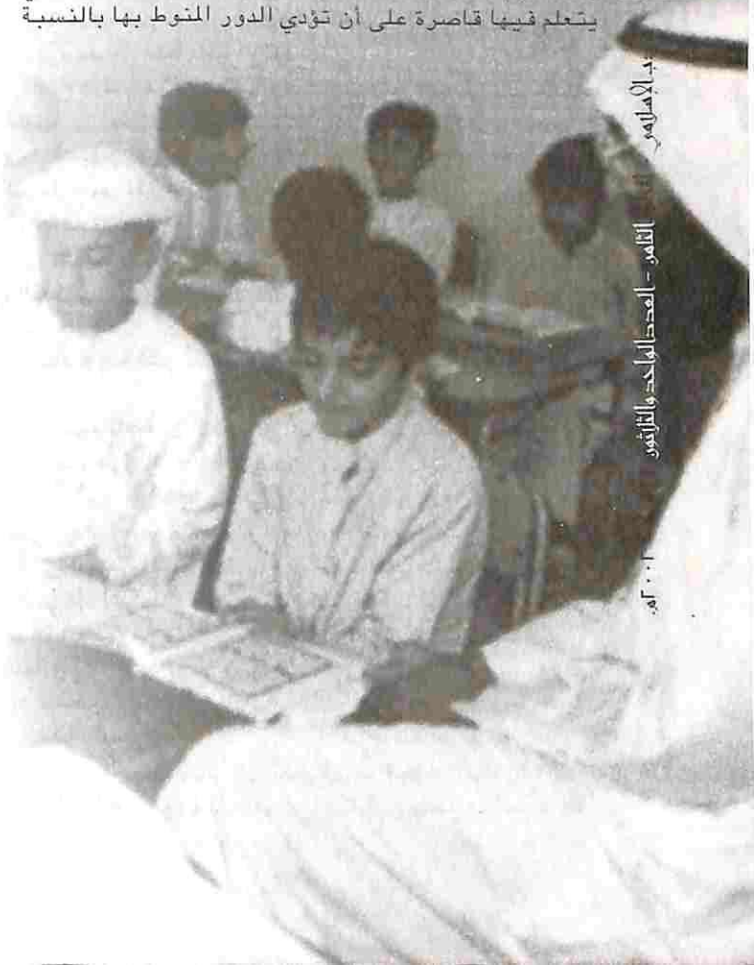

إن الثروة اللغوية لأطفالنا ، وقاموسهم غاية في التواضع إذا قيس بثروة الأطفال الذين يتكلمون لغات أخرى في البلاد المتقدمة خاصة وحصيلة الطفل الإنجليزي في سن العاشرة تزيد على عشرة آلاف كلمة ، عندما جمعوها وأحصوها ، وقد تزيد على ذلك لأنهم يعرفون كلمات يخفونها عن ذويهم ، خاصة فيما يتعلق بالذكر والأنثى ، مثل كلمة « المضاجعة » التي تتكرر في ترجمات الأفلام .. أما ثروة أبنائنا اللغوية ، عندما تقاس بما لدى أقرانهم فهي قليلة ضئيلة ، وفي محاولات دؤوبة من د. محمد محمود رضوان لحصرها وجد أنها لا تصل إلى النصف .. وحاولت د. ليلى كرم الدين في قاموس لها عن الكلمات الشائعة على ألسنة الأطفال ما قبل المدرسة أن تحصرها وتعدها ، مع محاولة أخرى للأستاذ عويدات في الأردن ، وإذا بها أكثر ضآلة.. لكن د. عبدالله الدنان في سوريا فتح بابا رائعاً لإثراء هذه اللغة لدى أطفال الرياض ، عندما أنشأ لهم روضة لا يتحدث أبناؤها بغير الفصحى ، وقد بهرني ذلك ، خاصة وأنه لم يكن قط ذا أثر كبير على لهجة الحياة اليومية ، حتى لقد صار هؤلاء الصغار يتحدثون الفصحى في البيت مع أسرهم ، بل ويعلمونهم إياها .. وعندما بدأت ألعب معهم بظلال أصابعي لأقدم صوراً للحيوانات عرفوها ، وعندما سألهم أستاذهم الجليل :

لماذا يفعل معكم كاتبنا هذا الذي يفعله ؟

رد طفل لايزيد عمره على خمس سنوات :

هو يداعبنا (لقد تجاوز حتى كلمة يلاعبنا) !

سأله : لم يفعل هذا ؟ لماذا يداعبكم ؟

كان الجواب : لأنه يحبنا.

أسعدتني التجربة ، وفي كل مرة تعوزني الكلمات البسيطة خلال الكتابة لأنني أريد أن أصوغ كتاباتي من كلمات داخل قاموس الطفل في القراءة -أقول لنفسي :

كثيرون يجاملونني حين يقولون إن أسلوبي العربي وأدبي للأطفال يكتب بشكل متميز ! لكن هؤلاء لايدرون كم المعاناة بحثاً عن كلمات بسيطة ، مفهومة لهم ، وكم يهبط هذا بأدبي وعباراتي ، لأنني غير قادر على إيراد كلمات هي أفضل وأكثر ملاءمة ..

وعندما أعجز في العثور علي كلمات مفهومة ، وعبارات ميسورة ألجأ إلى المرادفات ، وبعضهم يرى فيها إضافة ومحاولة لإثراء لغة الكتابة الأدبية للأطفال ، وقد يجد فيها آخرون إطناباً وتكراراً يفسد هذا الأدب .. والأمر في الكتابة الإسلامية الأدبية لهم أصعب كثيراً ، لذلك أناشد أساتذة اللغة عندنا أن يصنعوا لنا معجماً عربياً للكلمات التي نحتاجها في كتاباتنا الإسلامية لهم ، لشرح ما لا يسهل عليهم فهمه .. نريده معجماً مبسطاً ، سهلاً يعيننا ، بل ويساعد الأبناء على فهم معاني هذه الكلمات ، خاصة ونحن لانستخدمها مصورة ، بل في تراكيب وعبارات قد تتسبب في إعاقة فهمهم لها ، واستيعابهم للمراد منها وبها ، ولسوف يتسرع البعض فيعقب قائلاً :

ليس هناك مثل هذا المعجم للكبار !

وأناشد هؤلاء بألايتعجلوا ، لأن للكبار خبرات عريضة وواسعة ، ويستطيعون بها فهم ما يقرؤون ، أما الأطفال فليس أكثر من الكلمات التي تستغلق عليهم ، خاصة إذا ما وردت في نص قرآني ، وفي آيات كتاب الله .. وليس لدينا تفسير للقرآن الكريم يمكن للأطفال قراءته في سن مبكرة ، ولست غافلاً بالطبع عن تلك المحاولة التي لم تتكرر والتي أصدرتها دار المعارف في مصر ، وهي فيما يقترب من أربعين كتاباً، لا أظن أن طفلاً دون الخامسة عشرة أو السادسة عشرة قد قام بقراءتها .. وما قبل هذه السن ، نشرح لهم بعض الآيات في حجرة الدراسة تيسيراً لهم على فهمها وحفظها ..

الثروة اللغوية لأطفالنا في غاية التواضع إذا قيست بما لدى غيرهم في اللغات الأخرى

وكما قلت : إذا كانوا يطلقون عبارة « أدب اللغة على الكتابة الأدبية ، وتشمل ما يكتب للأطفال ، كيف السبيل إليه ، واللغة صعبة ، غير مفهومة لهم ؟! ..

إنني أورد كلمة « فقيه » في كتاباتي ، وأطفالنا في مصر يفهمون أنه هو الذي يتلو آيات القرآن الكريم ، وليس على أنه المتفقه في الدين ، كما أنني لا أستخدم كلمة « الفقه » إلا نادراً ، وأحاول شرحها ، بينما يدرس الأطفال في عدد من بلدان الجزيرة العربية والسعودية خاصة « الفقه الإسلامي » ضمن مقرراتهم المدرسية .. والسؤال : كيف السبيل لأدب إسلامي حقيقي ، وهذ هو الموقف من لغة كتابته؟.

(٣)

اللغة العربية من أدوات الكاتب الأساسية

لست أدعي أنني من دارسي «اللغة العربية» ، بل إنني أقف على شاطئها ، ولا ألقي بنفسي في بحارها ، لأنني لا أجيد السباحة فيها ، لكنني واحد من عشاقها ، ومحبيها ، كما أنني لا أكتفي بها تعاملاً مع الحياة اليومية فحسب ، وإنما هي من أدواتي الأساسية والرئيسية ، إذ أعتمد عليها كل الاعتماد في كتاباتي للأطفال ، وبدونها أكون صفر اليدين في عملي ، وفني ، ومن خلال ممارستي لها يرى البعض أن لي جانباً من القدرات في استخدامها ، بل و«ممارستها» - إن صح التعبير - وأقول : إن علماء اللغة لدينا لم يساعدونا بقدر كاف على القيام بمهمتنا وأداء دورنا لا على مستوى الأدب العام الذي نكتبه لأطفالنا ، ولا على مستوى الأدب الإسلامي بالذات.. إن لهم خبرات واسعة شاسعة باللغة ، ونريد أن يضيفوا إليها خبرات خاصة بلغة الأطفال عامة ، واللغة الأدبية التي نخاطبهم بها في كتبنا ، بشكل خاص ، إذ على حد علمي مازلنا بحاجة إلى طائفة من هؤلاء ، ويحضرني بهذه المناسبة رجل أو عالم لغوي إنجليزي ، عرفنا اسمه ونحن بعد أطفال في مدارسنا الابتدائية ، إذ درسنا الإنجليزية على كتبه الشهيرة وأعني به «ميكل وست» صاحب القاموس الخاص بالأطفال وهو قاموس شهير جهير ، ومعروف بشكل كبير للذين يتعلمون الإنجليزية من غير أبنائها ، وأحتفظ بهذا القاموس إلى يومنا هذا بجانب القاموس الأمريكي «ويبستر» الذي لايقل عنه شهرة ..

- وكان لي حظ زيارة بيته ومكتبه ومتحفه ، بل سمحوا لي بالجلوس إلى مكتبه ، لأن متحفه من تلك المتاحف التي يمارس زوارها «لمس» أشيائها ، والإمساك بها - وقد أعطى كل منهما جهداً كبيراً للغة الأطفال ، وبسّط ويست عشرات من الأعمال الأدبية الشهيرة ، لتكون في حدود ألفي كلمة فحسب ، ومكننا ذلك من قراءة الروائع في سن مبكرة .. لكنهم نبهونا إلى أن ذلك لمجرد فتح شهيتنا نحوها ، وأنه لابد لنا عندما نكبر من قراءتها .. وعندما أصبح ويست كبير السن جاؤوا له بمن يخدمه من الشباب ، على أن يدربه على هذا العمل ، وقد نجح واحد منهم اسمه (توود) في أن يخلف أستاذه .. والحق أن خدماتهم للغة والأدب جديرة بالاحترام والإجلال!

ولن ينسى التاريخ ما قدمه هؤلاء العلماء اللغويون من جهد للأجيال الجديدة الناشئة .. والسؤال :

ماذا عندنا في هذا المجال؟

ألا نشعر بأننا مقصرون في حق لغتنا رغم ترديدها بأنها لغة القرآن الكريم؟..

إن قراءة قصيدة حافظ إبراهيم عن لغتنا وهي تنعى حظها كفيلة بأن تشعرنا بالذنب ، والإحساس بأننا أمام أجيال أصابها العيّ ، لابد أن يثير أشجاننا ، وقد صار من الضروري أن يلبي البعض احتياجاتنا في هذا السبيل ، خاصةً فيما يتعلق بالمصطلحات الدينية الإسلامية.

إن وزارات التعليم - على مستوى العالم الإسلامي والعالم العربي- مطالبة بأن تشجع الاتجاه إلى عمل هذه المعاجم ، وهو عمل جماعي يصعب كثيراً على الأفراد القيام به متفرقين ، كما أن دور النشر قد تتقاعس عن إخراجه إلى النور.. وكنا ونحن أطفال نعتمد على «مختار الصحاح» لأبي بكر الرازي ، ويعتمد كثيرون الآن على «المعجم الوجيز» الذي أصدره المجمع اللغوي في مصر ، ويكفي للتدليل على أهميته ، وسعة انتشاره ، أنه يطبع منه سنوياً ربع المليون من النسخ ، وأنها تجد طريقها إلى من يقتنيها ويستخدمها .. واللغة كما نعرف كائن حي ، يولد ويكبر، وينمو ، ويشمخ ، ولا نقول «ويموت» بالنسبة إلى لغتنا العربية ، فإنها باقية خالدة ما بقيت الأرض ومن عليها ، وبفضل القرآن الكريم ، ولكننا في مرحلة أشبه بتلك التي مرت في ضحى الإسلام حين استشهد عدد كبير من حفظته ونقلوا هذا إلى سيدنا أبي بكر - رضي الله عنه - فاستطاع أن يجمعه مكتوباً على الجلود والعظام ، والحجارة ، ومن صدور الذين يحفظونه ، لكي تكتب في ستة مصاحف أيام سيدنا عثمان «رضي الله عنه» لتوزع على الأمصار ..

> ألا نشعر بأننا مقصرون في حق لغتنا رغم ترديدنا بأنها لغة القرآن الكريم.؟؟

اليوم .. اللهجات المحلية ، والكلمات الأجنبية ، تهدد لغتنا ، وعلينا أن نتصدى لذلك ليبقى لسان العرب ويبقى حماة اللغة شاهرين سلاحهم للمحافظة عليها والدفاع عنها ، من أجل أن تنطقها الألسن صحيحة ، ولكي تكتبها الأقلام سليمة ، خاصة فيما يتعلق بالأطفال ، وقد تصفحت كتب اللغة ، والتي أحتفظ بالكثير منها في مكتبتي ، من أجل أن أستعين بها ، مراجع لموضوعي ، وقرأت العديد منها منذ سنوات بعيدة ، ووجدت فيها مادة سخية عن اللغة : د.إبراهيم مدكور ، د.إبراهيم أنيس ، د.شوقي ضيف ، وأيضاً د.صلاح العربي ، و.. ، و.. إنها عشرات من أسماء أساتذة أجلاء ، من بينهم أيضاً د.كمال بشر و د.صلاح فضل وأيضاً فاروق شوشه - وقدموا لها خدمات جليلة - غير أنني لم أعتمد على ما قرأت ، بقدر ماقلت مما عندي ، مرجئاً ذلك إلى مناسبات أخرى ، مكتفياً في هذه المرة بإثارة القضية.. لأنني أعلم يقيناً أنها لايمكن أن تكون مهمة كاتب أو باحث في أدب الأطفال ، لأنه مجرد طرف ، وهناك أطراف لابد أن يسهموا في النقاش ، بإضافة ماليديهم .. ويعلم الله كم هي الأخطاء اللغوية التي «ارتكبتها» وأنا أتحدث عن قضية اللغة ، وأعرف أن كثيرين - لست من بينهم والحمد لله - ينطقون كلمة لغوي بفتح اللام وهم يتحدثون عن اللغة ..

وينقلب المعنى رأساً على عقب ، ولعلي لا أكون قد وصلت بما كتبت إلى هذا الحد ، وكل ما أتطلع إليه أن نعطي اللغة مكانتها في أدبنا للأطفال عامة ، ولأدبنا الإسلامي لهم بصفة خاصة ، لكي نصل به إليهم ، ولكي نقوّم ألسنتهم التي بدأت تعوج ، وأقلامهم العاجزة عن الكتابة الصحيحة إملاءً وإعراباً ، فضلاً عنها إنشاءً وتعبيراً..